

2- وصف العنصر - الوصف التفصيلي

تعدّ الحدادة التقليدية بمدينة صفاقس حرفة يدوية متوارثة عن الأجداد. اختصت بممارستها عدد من العائلات. وقد ذاع صيت هذه الحرفة داخل المدينة وخارجها خاصة مع ما كان يسمّى سوق الحدادين الذي تصدر مكانة عالية بفضل شهرة وجودة منتجاته من الحديد، فضلا عن ميزة تواجده في المجال المدني. وتصنّف هذه الحرفة في المتعارف المحليّ بأنها مهنة شاقّة لأنها تتطلب جهدا بدنيا كبيرا في تشكيل الحديد وتقتضي مهارة عالية في تطويعه، يعبر عنها المأثور الشفوي بقوله "واحد يصنع مقزونة وزناد وواحد يصنع منجل حصاد وكلُّ حدّ يقول أنا حدّاد" دلالة عن امتياز حرفة الحدادة بقدر هام من المعرفة لا يُستهان بها ولا يمكن أن تكون في متناول كل الناس.

والحديد هو المادة الأولية والمعدن الأساسي في صنع منتجات الحداد. ويتوجّب على الحرفيّ عادة أن يعمل ووقفا مع عامل مساعد له. وتمرّ عمليات صنع منتجات الحدادة التقليدية غالبا بهذه المراحل و تتمثل في:

-احضار الكور أو المجرمة: ينطلق الحداد بوضع الفحم في الكور وإيقاد النار فيه لتسخين القطع الحديدية وإحمائها بما يبسرّ معالجتها.

-النفخ: ييضخ عامل الحدّاد الهواء في بيت نار المجرمة بواسطة منفاخ جلديّ يُشغّل بالنتائح بواسطة حركة يدي و ذراعي الحرفيّ، حتّى تتأجج النار بالهواء الصادر عن المنفاخ لغاية الحفاظ على اشتعال النار في الفحم داخل الكور وضمان تواصل إحماء الحديد على حرارة عالية.

-الإحماء: عادة ما يلجأ مساعد الحداد إلى مراقبة درجة إحماء القطعة حتّى يخرج منه وهج السخونة، دون درجة الذوبان. ويصبح لونه أحمر ثم يتحوّل إلى البرتقالي فالأصفر.

-التحويل على السندان: يقبض الحداد على قطعة الحديد بواسطة كمّاشة لتحويلها من بيت النار ويضعها بسرعة على السندان على أحد طرفي قرنه أو على سطحه. ويظلّ الحداد يمسك بها طيلة فترة تثبيتها على السندان. وقد يعمد إلى إعادة إحمائها لمزيد تطويع الحديد، ثم يعيدها إلى السندان في الوقت المطلوب.

-الطرق: يطرق الحداد على المعدن بالتناوب مع عامله كلّ بدوره بسرعة طالما لا يزال المعدن مطواعةً وملتهبًا. وبعد قبضه على قطعة الحديد يقوم العامل بتحريكها عموديا لقلبها على هذا الجانب أو ذاك، أو وضعها أفقيا لتغيير موضع الدقّ على سطحها بحسب متطلّبات الطرق. وإذا كانت ضربات المعلم تتطلب القوة والنتاغ بالتناوب مع ضربات العامل، تقع على الأخير مسؤولية كبيرة في تحريك القطعة مع إدخال القطعة مرّات إلى بيت النار، ولأفعال كل طارق منهما وقع معيّن وأثرٌ مخصوصٌ على القطعة، ودورٌ محدّد في تشكيلها للتخلّص من الشوائب المختلطة بالمعدن ودمج مختلف أجزائه مع بعضها بما يؤدي إلى قابلية الحديد للتطويع والتشكيل.

-التسقية بالماء: يُستكمل التطريق بالسّقاية والتبريد في الحوض الحجري الذي يحتوي على ماء لإعطاء المعدن شكله و تماسكه المطلوب وتصليده عن طريق تحويل في بنيته الداخلية عبر عملية التبريد السريع بالماء وليكتسب خصائص استثنائية من الصلابة أو الليونة. وقد يبلى الحديد بالماء لتحديد مكان الصقل. ويقوم الحداد الحرفي بمعالجة الحديد لصنع منتجات ذات أشكال أو مقاسات مختلفة عبر أعمال عديدة منها:

تمديد المعدن أو زيادة سمكه أو تقليصه: من بين أعمال الحدادة زيادة سمك المعدن في بعد واحد عن طريق تقصير البعد الآخر. ويتمثل ذلك عبر تسخين طرف القضيب ثم الطرق عليه أو يمكن وضع الطرف الساخن على السندان والطرق على الطرف البارد وتمديد المعدن ليصبح أطول أو تقليصه ليصبح أصغر حجما مما كان عليه في الأصل.

-الليّ: عندما يكون المعدن ساخنا في درجة حرارة مناسبة يتمكّن الحداد من تشكيل المعدن كما لو كان مادة ليّنة وقابلة للتمدد فيعمل على ليّ أو لفّ الحديد دون أن يحدث شقوقا خفية قد تسبّب في قطع الحديد أو تفكّكه نهائيا.

الرباط: بعد أن تصبح المعادن المتماثلة أو المتشابهة في النوع في القطعة الواحدة على وشك الانصهار بفعل الحرارة، دون أن تتصدّع يتم وصل هذه المعادن وضمان تماسكهما إلى بعضهما.

الثقب: يقوم الحداد بثقب بعض المناطق في القطعة المعدنية المحمومة باستخدام المسامير والطرق عليها

في اللحظة المؤاتية، لإحداث ثقب في صلب الحديد لإيصال أجزاء القطعة الواحدة ببعضها أو إحداث ثقب مقبض أولغاية الزخرفة .

الشحذ: تؤدي رحي الشحذ إلى مزيد تشكيل القطعة الحديدية، وتنعيم السطح وصقله وتلميعه أو إزالة بعض الحواف الزائدة والحادّة.

الطلاء: هناك مجموعة من المعالجات والطلاءات النهائية تعمل على منع تأكسد المعدن وتحسين الشكل الخارجي للقطعة. ويختار الحدّاد نوع الطلاء النهائي بخبرته الطويلة بناءً على نوعية المعدن والاستخدام المصنوع من أجله. وتتضمن أنواع الطلاءات النهائية على سبيل المثال لا الحصر كبريت الزئبق ويدهن به الحديد لكي لا يصاب بالصدأ.

وإثر الفراغ من مجمل أعمال الحدادة، عادة ما يتمّ تغطيس المطارق في الماء رأسياً بهدف إحكام تثبيت المقابض الخشبية فيها، بفعل تشربها للماء وانتفاخها في داخل كتل المطارق المعدنية، تفادياً للإفلات من أمكنتها أثناء الطرق وإثره.

ويتولى الحدادون صنع العديد من أدواتهم التي يستخدمونها في المهنة على غرار الأزامل ومدقات المطارق. كما يوفرّون الأجزاء الحديدية لمجموعة أخرى من المنتجات ذات الاستخدامات المتنوعة في ممارسة عدة أنشطة فلاحية على سبيل المثال المحاريث والمناجل والمعاول والفؤوس. وفيما يهتم ميدان البناء بصنع الحدادون الرفوف وشبابيك النوافذ والمفصلات والمطارق والأقفال لتجهيز الأبواب ويوفرّون المسامير المقبّبة لزخرفتها. كما يتولى الحداد صنع السيوف والخناجر والسكاكين فضلا عن منتجات أخرى على غرار حدوات الأحصنة وبعض من مكونات من سروجها.

- العناصر الماديّة واللاماديّة المصاحبة للممارسة أو المهيكلة لها (الفضاء/ الأزياء/ الأدوات...)

تتم ممارسة العنصر في ورشات صغيرة خاصة بأعمال الحدادة ولا توجد أزياء مميزة للعمل باستثناء لبس القفازات في بعض من مراحل العمل. ويستخدم في جانب من مداخل الورشات وإطارها العلوي أمكنة لعرض الأدوات المنتجة أو المُباعَة في قضيبيين من حديد مثبتة إلى نواح من جدران الورشة يستخدمان عادة لتعليق الملاقط والكمّاشات. وتحتوي عدد قليل جدا من الورشات على بيت النار وتسمى أيضا فُورجَة وهي كلمة فرنسية. تجاورها أكياس مودّعة على الأرض تحتوي على وقود فحم حطب الزيتون ويسمى بَيّاض يقابله منفاخ من الجلد السميك. وعادة ما يوجد في أحد أركان الورشة حوض حجري فيه ماء ودلو احتياطي آخر فيه ماء.

ومن هذه الورشات ما يضمّ مجموعة متنوعة من الأدوات وتُشكل قطع الحديد حسب رغبة الحدّاد باستخدام آلات تقليدية وبعض الآلات الحديثة البسيطة لتيسير عمله فضلا عن طبقات من الحديد تحتوي على نسبة منخفضة جدًا من الكربون بما يزوّده بمقاومة شديدة ضدّ الصدأ والكثير من الأدوات من أبرزها:

- **السندان:** هو قطعة معدن شبه مكعبة رباعية الزوايا ذات قرنين و سطح حديدي أملس مستقيم تبنّت بواسطة زجها في وسط قاعدة من خشب تسمى قِرْمَة السندان . ويستخدم السندان لوضع المعدن عليه.
- **المطرقة:** وتسمى مرزبة وهي أداة ثقيلة ومحمولة بقبضة واحدة وأحيانا محمولة بكلي القبضتين. يستعملها الحداد لطرق الحديد لتطويعه وتشكيل مادته.
- **الإزميل:** ويسمى محلّيا زرادية ذات مقابض خشبية وفي بعض الأحيان متّصلة بشريحه معدنية بطرفها ميل معين أخره حاد. وهي أداة رئيسية يستخدمها الحداد في عمله لقلع المسامير أو لتعديل قطع المعادن الباردة والساخنة وتشكيل التفاصيل الصغيرة بالقطع أولّيها.
- **الملقط أو الكماشة:** أداة معدنية تُصنع في أغلب الأحيان من قبل الحداد نفس ذات أشكال متشابهة، إلا أنّها تتفاوت في أحجامها وتتناسب أساسا حسب حجم القطع المراد إمساكها. يستخدمها الحداد لإمساك القطع المعدنية الساخنة غالبا.
- **المبرد:** أداة حديدية يستعملها الحداد بعد أعمال الطرق لتسوية الأشياء الصّلبة وإزالة حوافها الحادة أو سّحل سطحها الخارجي للحصول على الشكل النهائي "برّد الحديد بالميرد"

- **المنقار:** أداة ذات نهايه حادّة ومدبّبة تثبّت على مادة الحديد لوضع علامة واضحة على المكان المطلوب ثقبه .

- **الفرجار أو البورجل:** وهي زاوية ذات ضلعين متعامدين بزاوية 90 درجة مصنوعة من مواد صلبة. تستخدم في اختبار استواء الأسطح بعد برّدها أو تقسيم الخطوط المنحنية لتحديد الخطوط المتوازية وقياس مدى استقامة واستواء السطح.

ويستعمل الحرفيون مصطلحات تهم مسميات بعض الحركات في معارف العمل على مثال "احمش النار" بمعنى ايقاد النار و"انصب السندان" بمعنى وضع السندان لطرق الحديد عليه . ويستخدم الحدادون مسميات بعض المنتجات على غرار "زلابيا" و"كاركوريا" و"اسكندراني" هي أسماء بعض من أشكال القضبان لجهاز النوافذ الحديدي. وتعبيرا عن قيمة حرفة الحدادة الاجتماعية، ولأهمية ما توفّره من منتجات نفعية لممارسة عديد من الحرف الأخرى وأغلب الأنشطة الفلاحية يتداول القول المأثور "الحدادة لوكان مؤش من سواها علّمتها الملوك لأولادها".

- الممارسات العرفية التي تنظم أو تمنع الوصول إلى العنصر

لا توجد ممارسات تمنع الوصول للعنصر.

- كيفية التعلّم وطرائق النشر بين الأعضاء والتمرير للنأشنة

تنتقل معارف ومهارات الحدادة عبر توارثها عن الآباء والأجداد وهي مهنة اختصت بها عائلات دون أخرى ومن أبرزها، عائلة البجاوي وعائلة الشريف وعائلة كسكاس. ومن الحرفيين من تعلّم هذه الحرفة بمختلف مراحلها أو البعض منها غالبا على يد أحد الحرفيين المختصين من هذه العائلات ونادرا على يد معلّم من خارج هذه العائلات. وحاليا تتولى مراكز التكوين المهني نقل العنصر بصفة محدثة مع الحفاظ على جوانب من حرفة الحدادة في بعدها التقليدي.

-3- الفاعلون المعنيون بالعنصر

- حملة العنصر من الممارسين له بشكل مباشر

- الحرفيون المختصون في صناعة الحديد بمدينة صفاقس. وأفراد من عائلات تميّزت بمعرفة الحدادة التقليدية يمارسون مهنة الحدادة كمهنة.

- مشاركون آخرون

- حرفيون من حرف أخرى تتعامل مع الحدادين لتوفير أجزاء من بعض الأدوات التي يصنعونها مثل النجارة الجبوس الذين يجمعون في عملهم ما بين منتجات من الحديد ومقابض من الخشب لصنع أدوات فلاحية تقليدية.

- باعة المواد الأولية من المعادن يوفرون مادة الحديد .

- المهتمون بميدان الفنون الجميلة من طلبة وأساتذة يعودون الى منتجات الحدادين

- البنّاءون الذين يشترون بعض المنتجات من معدن الحديد لاستعمالها في مراحل من البناء أو توظيفها في عناصر من زخرفة الابواب والنوافذ.

- أساتذة وتلاميذ من مراكز التكوين المهني.

- حرفيين يصنعون تحف باستعمال مواد من الحديد توفرها الحدادة التقليدية.

- منظمات غير حكومية/ المجتمع المدني

- جمعيتي صيانة مدينة صفاقس .
- جمعيتي حرفيون بلا حدود.
- جمعية أصحاب المباني القديمة في برج القلال

- هيئات رسمية

- المعهد الوطني للتراث: قسم المسح ودراسة الممتلكات الإثنوغرافية والفنون المعاصرة.
- وزارة الشؤون الثقافية: إدارة التراث.
- الديوان الوطني للصناعات التقليدية.
- وزارة الصناعة و التجارة.
- المعاهد العليا للفنون الجميلة.
- بعض مراكز التكوين المهني.

4- مدى قابلية العنصر للاستمرار: العراقيل والتحديات

يشهد استعمال الوسائل التقليدية في احماء الحديد وتطويعه وتشكيله تراجعاً واضحاً، وبالمقابل نلاحظ دخول الميكنة لتحقيق بعض من هذه الأعمال الأولى والأساسية في معالجة الحديد. وما تزال بعض المنتجات التي يصنعها الحداد التقليدي تتأثر بقدر هام من الاستخدام في مختلف المهن والحرف اليدوية والفنية. وتجد مكانها في استعمالات عديدة في الأنشطة الفلاحية، إلا أن ذلك لم يمنع تراجع الإقبال عليها نتيجة لتناقص استخدام منتجات الحدادة التقليدية في بعض من أعمال الحرف اليدوية التي شهدت بدورها تراجعاً وحل محلها قطع عصرية من مواد مصنعة، وهذا ما أدى إلى ركود عدد من منتجات الحدادة التقليدية، خاصة في ظل التطورات العملاقة التي شهدتها الصناعات المعدنية وما تبعه من دخول الميكنة إلى مراحل عديدة من حرفة الحدادة.

ما تزال بعض المنتجات الحرفية من مطارق الأبواب و بعض النماذج من مشبكات النوافذ ذات الطابع التقليدي وبعض الأنواع من مسامير الزينة التي تزخرف الأبواب تحظى بالإعجاب والإهتمام، غير أن ارتفاع ثمنها بسبب ارتفاع تكلفة الإنتاج. وما يستدعيه صنعه من وقت، أدى إلى تراجع الإقبال عليها نتيجة لضعف المقدرة الشرائية. وبالمقابل حل محل غالبية منتجات الحدادة التقليدية قطع عصرية من مواد مصنعة أقل جودة لا ترقى إلى مستوى صلابة وقيمة المنتجات التي يصنعها الحداد التقليدي ولكنها تكون أقل ثمناً وأكثر سهولة في الحصول عليها، وهو ما أدى إلى ركود عدد من منتجات الحدادة التقليدية.

من جهة ثانية برزت بعض المواد المصنعة ذات التصميم الحديثة والجودة العالية التي عوضت المفصلات والأقفال والمطارق التقليدية في الأبواب. أدى إلى الإقبال عليها، بما يتوافق مع متطلبات صناعة الأبواب في المباني الحديثة ومستلزماتها من تجهيز عصري.

ومن أبرز العوامل المهّدة لتواصل الحرفة، وشأنها في ذلك شأن أغلب الحرف التقليدية تردّي أوضاعهم المهنية وعزوف الشباب عن ممارسة الحدادة، لما تتطلبه من مجهود بدني كبير وما قد تسببه من تلون الأيدي بسواد الحديد. أدى إلى نقص اليد العاملة في صناعة الحدادة التقليدية.

ويهدّد استمرار جانبها أساسياً من هذه الحرفة ميكنة عمليات التدوير للحديد وتشكيله وتعويضها بآلات لقص السبائك الحديدية وقولبتها مثلاً. وكذلك تكثف حركة استيراد منتجات مصنعة جاهزة مع حلول منتجات الصناعة الآلية الحديثة التي لا يستدعي صنعه أحياناً إلا بعض الثواني مكان الأدوات التقليدية. وتجاه هذا الوضع، نسجل ضعف الجهود والتدابير لمواجهة هذه التحديات والتشجيع على ممارسة الحرفة الفنية و ضمان ترويج منتجاتها.

5- برامج التثمين وإجراءات الصون

لا توجد برامج تثمين أو إجراءات للصون خاصة بحرفة الحدادة التقليدية وإنما اقتصر الجهد على إعانة بعض الحرفيين على عرض منتجاتهم في عدد قليل من المعارض الوطنية، وتشجيع عدد من الحرفيين بتمكينهم من البطاقة الحرفية التي تعتبر ذات قيمة في تثمين هذه الحرفة لدى الحرفيين. ورغم غياب الجهات المعنية عن دعم مهنة الحدادة التقليدية، إلا أن منتجات الحدادين التقليديين مثل عدد من الأدوات الزراعية تشهد طلبا خاصة في مواسم الأنشطة الفلاحية، كما أن أصناف من الخناجر والسكاكين والسواطير، تلقى رواجاً في الأسواق المحلية خاصة في فترة عيد الأضحى. كما تلقى المفاتيح الكبيرة والمطارق الحديدية وتزويق الأبواب بمسامير الزينة التقليدية بعض الرواج لإعادة توظيفها في عدد من منازل الأثرياء التي يحن أصحابها إلى الموروث. كما توجد بعض من منتجات الحدادة التقليدية مكانا لها في عدد المقاهي أو المطاعم العصرية لمزيد إثراء زخرفة عمارتها الحديثة وإعطائها طابع المحلية. ومن أهداف مراكز التكوين والتدريب المهني أعداد القوى العاملة بالتدريب في بعض من تخصصات الحدادة العصرية مع اعطاء قيمة لجوانب من الموروث الحرفي في الحدادة التقليدية.

6- التوثيق الفوتوغرافي للعنصر



حداد مع عامله يطران الحديد



بطاقة بريدية بها صورة نهج الحدادين



حرفي يصنع مفتاح تقليدي



مطرقة وسندان



صنع مفصلة حديدية



معالجة مشبكات حديدية على شكل زلابيا



حلقة باب من منتجات الحداد



صنع مفصلة الباب التقليدي (البرامية)



أمقاص يصنعها الحداد ويستخدمها السراج



القطار التقليدي من منتجات الحداد لتقطير الرياحين

7- هوية الشخوص المرجعية المعتمدة في استيقاء البيانات

- تمت محاوره مجموعة من الحرفيين ممن عملوا منذ سنوات في سوق الحدادين وحرفيين يزاولون أعمالهم في الحدادة التقليدية في ورشات موزعة في نواح من المدينة العتيقة قرب باب الجبلي وخارج المدينة منهم من يتقن مختلف مراحل العمل ومنهم من يختص في مرحلة معينة أو أكثر:

- محمد كسكاس، 65 سنة، قرابة الأربعون سنة أقدمية، تعلم عن والده وأجداده مهنة الحدادة ، له ورشة حدادة في طريق تنيور كلم 9 .
- محمد البجاوي، 58 سنة، قرابة ثلاثة عقود أقدمية، توارث المهنة في صلب العائلة، له ورشة حدادة في طريق الأفران كلم 6 .
- منير البجاوي، 56 سنة، حرفي في عمل الحديد قرابة ثلاثة عقود، تعلم منذ صغره حرفة الحدادة عن والده وأعمامه ،له ورشة حدادة في طريق الأفران كلم 6.
- محمد الشريف، قرابة الأربع وخمسون سنة أقدمية، تعلم منذ صغره حرفة الحدادة عن والده وأعمامه، له ورشة حدادة في طريق العين كلم.

8- المصادر والمراجع - المكتوبة

- ابن خلدون (عبد الرحمان) ، المقدمة، الجزء الثاني، الدار التونسية للنشر، تونس 1980.
- البقلوطي(الناصر)، صناعة النحاس، الديوان الوطني للصناعات التقليدية، منشورات أليف، تونس، 2010.
- الزواري (علي) والشرفي (يوسف)، معجم الكلمات والتقاليد الشعبية بصفافس، سوجيك صفاقس، 1988.
- القلال (سهام)، الأبواب في العمارة السكنية التقليدية بمدينة صفاقس العتيقة دراسة انتوغرافية، شهادة الدراسات المعمقة في الآثار والتراث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، قسم التاريخ، إشراف الناصر البقلوطي، أكتوبر 2003.
- Albert (France-Lanord), Métaux anciens, structure et caractéristiques, fiches techniques, ICCROM, 1980.
- Delcroix (G.), Tortel (C.), Contribution à l'élaboration d'une méthodologie de la sauvegarde des biens culturels, Paris, 1973.
- Revaut (J.), *L'Habitation tunisoise, Pierre, Marbre et Fer dans la construction et le décor*, Ed. C.N.R.S., Paris, 1978
- Legendre(M), Survivances des mesures traditionnelles en Tunisie, Publication de l'Institut des hautes études de Tunis, Volume IV, 1958.
- Revault(J), « Arts Traditionnels en Tunisie », Publication de l'office National de l'Artisanat de Tunisie, 1967.

- السّمْعِيَّة البصريَّة

تسجيل وثائقي في شبكة تراثي التونسي بتاريخ 23 ماي 2020 الحدادة التقليدية – حداد قرى الواحات من انجاز محمد الجزيرايوي. <https://m.facebook.com/turathy.tn/posts/2619453551657371>

- المواد الوثائقية المحفوظة في المتاحف والأرشيفات والمجموعات الخاصة

تُعرض في إحدى قاعات العرض في متحف العمارة التقليدية بصفافس (متحف القصبية) منتجات عديدة من المفصلات والأقفال والمطارق والمفاتيح من صنع الحدادة التقليدية. وتوثقت هذه القاعة صورة قنوغرافية مأخوذة لحداد وهو يطرق على السندان بطريقة تقليدية من سوق الحدادين. وبهذا المتحف تُعرض أدوات من البناء التقليدية جانب من مكوناتها من صنع حدادي صفاقس. تتوفر في متحف دار الجلولي مجموعة من أدوات الكيل وآلات الوزن الحديدية.
يحافظ أفراد من العائلات التي عرفت بامتياز حرفة الحدادة التقليدية بأدوات ومنتجات تقليدية.

9- معطيات تقنية حول عملية الجرد

- تاريخ البحث الميداني ومكانه

- سبتمبر وأكتوبر 2020 بدكاكين الحدادين بالمدينة العتيقة وبعدد من الورشات خارجها وأساسا بورشة الحرفي محمد البجاوي

- جامع أوجامعو المادّة الميدانيّة

- سهام القلال، مكلف بالبحوث بالمعهد الوطني للتراث.
- محمد ولها، أستاذة تعليم ثانوي في مادتي التاريخ والجغرافيا
- زياد كمون، محافظ تراث.

- تاريخ إدخال بيانات الجرد

سبتمبر وأكتوبر 2020.

- محرّر البطاقة

- سهام القلال، مكلف بالبحوث بالمعهد الوطني للتراث.

- تحيين المعطيات الميدانيّة

جانفي 2022.